آلات الموسيقى المعروفة ذات الفصول المطربة والالعاب الصبيانية المتحركة وغير ذلك مما بني كلهُ على علم الحِيَل والله اعلم

القوى العاقلة في الحيوان

من قلم حضرة الاب الفاضل الخوري قسطنطين الباشا (ب م)

لا شك ان من اجل واهم مباحث الانسان بحثهُ عن نفسهِ وعمّا حولهُ من الكائنات التي تشترك معهُ في صفاتهِ وقد وقفت في مجلة الضيآء المنيرة على كلامٍ في هذا البحث لجناب الكاتب الفاضل خليل بك سعد يُتوسم من خلالهِ الحكم بالمساواة بين الانسان المخلوق على صورة الله والبهيمة وهو من الآرآء التي احب ان انزّه حضرة الكاتب عن الذهاب اليها ولذلك ارجو ان يسمح لي ببيان ما اراهُ لا ينطبق على الصواب في مقالتهِ الاولى والثانية وان يحسن فيَّ الظن باخلاصي في البحث مع اقراري بفضلهِ في قضايا اثبتها هناك لا يسعني ذكرها في هذا المقام

ثم ارجو منهُ ان لا يتعرض في هذا البحث لذكر اقوال الكتاب تنزيهاً لهُ عن التأويل الزائغ ولعدم امكان استنتاج شيءٍ منهُ ينطبق على مرادهِ ولذلك اقصر البحث معهُ على الوجوه المعقولة فاقول

استنتج حضرة الكاتب وجود مبدأ عقلي في الحيوان كلهِ استناداً على حوادث ذكرها هناك ترجع كلها الى مبدأ حساس من غير حاجةٍ الى تكلف القول بوجود مبدأ عقلي فان هذه النتيجة اي وجود المبدأ العقلي غير لازمة

بحسب اصول القياس اذ لا وجود لها في المقدمات التي بنى عليها هذا الحكم كما سأقررهُ

ولا يضاح ذلك اذكر هنا ما يشترك فيهِ الانسان والبهيمة على قدر ما يسع المقام فاقول ان للبهيمة نفس الحواس الظاهرة التي للانسان يستخدمها كلٌّ منهما لادراك ما يحيط بهِ من الاجسام الخارجة على وجه مخصوص في كلٍّ من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وهي وان كانت عامةً في كل انواعهِ فقد تتفاوت حتى تكون في بعض الانواع اتم منها في الانسان مثل بصر الحيل وسمع الخلد وغير ذلك مما لا يخفى

ومما يشترك فيهِ الانسان والبهيمة الحواس الباطنة وهي قوى يكمل بها الادراك الباطني وهي غير الحواس الظاهرة التي تكون بمنزلة جواسيس لها في الادراك وهذه القوى خمس ايضاً وهي الحس المشترك والخيال والقوة الوهمية والمتخيلة والحافظة

فاما الحس المشترك فهو القوة التي ترتسم بها صور الجزئيات المحسوسة بالحواس الظاهرة في الدماغ مركز الحس العام فتطالعها النفس هناك وتدركها وهي بمقام معرض عام جامع لكل الصور المحسوسة حيث تقابل وتضم منها المتشابهات وتبعد المتضادات ولولا هذه القوة لما امكننا الحكم على شيء لا سلباً ولا ايجاباً فان القاضي يتعذر عليهِ الحكم ما لم يكن الخصمان حاضرين لديهِ حتى يمكنهُ ملاحظة النسبة بين الاثنين وايقاع احد طرفيها على الآخر ولا غنى عنها بالعقل الذي من شأنهِ ادراك الكليات

واما الخيال فهو قوةٌ تُحفظ بها الصور المرتسمة في الحس المشترك اذا غابت

المحسوسات وهي بمقام خزانة لهُ وبها يُعرَف من يُرى ثم يغيب ثم يحضر ولولا هذه القوة لما امكننا معرفة احد وعدِم التمييز بين الضارّ والنافع والصديق والعدوّ ولولا وجود هذه القوة في البهيمة لما بنى الطير اعشاشهُ والنمل قراهُ على اسلوب عجيب غريب ولولم تحفظ اناث النحل اضرار ذكورها لما قامت عليها ولم تبقِ منها سوى ذكرٍ يحفظ نوعها في الكيان

واما القوة الوهمية فهي قوةٌ تدرك المعاني الجزئية المتعلقة بالصور المحسوسة كالعداوة التي تدركها الشاة من الذئب فتهرب منهُ والمحبة التي تدركها السخلة من امها فتلوذ بها والمنفعة التي يدركها الحمار من النبات الصالح لغذآئهِ فيأكلهُ والمضرة التي يدركها من السامّ فيتجنبهُ ما لم يشتبه عليهِ في ظاهرهِ

واما الحافظة فهي القوة التي تُحفظ بها المعاني الجزئية التي تدركها الوهمية كالخزانة لها ونسبتها الى الوهمية نسبة الخيال الى الحس المشترك ولولا هذه القوة في الحيوان لما قضى عملاً كاملاً في كل حياتهِ فلو لم يذكر الوحش سد جوعهِ لما طلب الصيد وخاطر على نفسهِ ولو لم يذكر الطير فراخهُ لما سعى نهارهُ في طلب القوت لها

واما المتخيلة فهي القوة التي تتصرف في المعاني الجزئية والصور المحسوسة بالتركيب او بالتفصيل واذا أُسندت الى الوهم في احكامها وافعالها كانت بديهة غريزية وان اسندت الى العقل كانت قوة مفكرة وهي قد تكون في بعض انواع الحيوان اتم منها في الانسان حتى يكاد يخرج عن رتبتهِ التي وُضع فيها والى هذه القوة ترجع كل افعال البهيمة التي تدل في ظاهرها على تعقل وهي لا تخلو من القياس بان تقاس صورة على صورة قياساً حسياً لا دخل

فيهِ للعقل

ومما تقدم يعلم جلياً ان المبدأ الحساس اتم في البهيمة منهُ في الانسان ولذلك نرى ان البهائم تولد كاملة حاصلة على كل قواها لا تحتاج الى شيء في كل اعمالها بخلاف الانسان فانهُ يولد ضعيفاً بالطبع لا يقوى على شيء بحيث انهُ لو تُرك وشأنهُ على وجه الارض لما بقي يوماً من الدهر لما بهِ من الحاجة والضعف لكن بفضل عقلهِ وتعاون افرادهِ حصل على هذا الكمال من حيث اتقان الاعمال واكتساب المعارف والعلوم والجد في الكشف والاختراع ولن يزال جارياً في هذا السبيل الى ما شآء الله ولذلك لا تجوز نسبة تلك الافعال التي ذكرها حضرة الكاتب الفاضل الى مبدأ عقلي من شأنهِ ادراك الكليات وهو مما تقصر عنهُ بدائه البهائم بل يجب نسبتها الى مبدإٍ حساس واحد في الانسان وسائر الحيوان

اما كلامهُ عن اللغة فعلى ما ارى انهُ قد خلط بين الاصوات والالفاظ المنطقية التي امتاز بها الانسان على ان هذه الاصوات يأتيها الانسان والبهيمة على السوآء وتدل دلالةً طبعية لا وضعية فلا دخل لها في اللغة لان الدلالة الوضعية لا بد فيها من تواطؤٍ مما يستحيل على بدائه البهيمة ولا سيما ان اكثر معاني الذوات والاحداث من الكليات لا تحضر بالعيان ولا تقع تحت الحواس فضلاً عما يلزم للاسناد من الحكم العقلي والتصرف فيهِ ولا سيما اذا كانت اللغة ذات اعراب مما تتغير بهِ اواخر الالفاظ لاختلاف موقعها في التركيب من فاعل ومفعول الى كثير من الحالات في الاسمآء والافعال . وعليهِ فلا يخرج لفظ الببغآء مهما كان واضحاً عما ذكرنا من كونهِ صادراً عن

مبدإٍ حساس . وكذلك كلامهُ في القوى الادبية لايخرج عن المبدأ الحساس كما تقدمت الاشارة اليهِ مما لا يسمح ضيق المقام بالتفصيل في بيانهِ . اما اذا كان مرادهُ بهذه القوة الذمة والضمير فهو مردود لانهُ حكمٌ عقليٌّ مدارهُ على مبادئ الآداب وهي كلية لا يقدر ان يدركها المبدأ الحساس . على انهُ لو كانت الآداب تشمل كل انواع الحيوان وهي نسبية من حيث المعرفة فاين امانة الهرّ الذي يعض احياناً اليد التي تحسن اليهِ واين ذمة الفرس التي ترفس صاحبها او خادمها واين شرف الاسد الذي يفترس خادمهُ الذي يقدم لهُ غذآءهُ واين تعقل الحية التي تسطو احياناً على من لا يؤذيها الى غير ذلك من المسائل التي لا جواب عليها الا القول بان الطبع غلاب وانهُ لا يردهُ عن جماحهِ الا العقل الذي بهِ يميز بين الخطأ والصواب

العطش

اختلفوا في العطش هل هو وجدانٌ موضعي او عام فذهب بعضهم الى انهُ موضعيٌّ وجعل محلهُ مؤخر الحلق لانهُ وجد أن العطش كثيراً ما يكفي لنقعهِ التغرغر بالمآء او ترطيب الحنجرة بقطراتٍ من حامض الليمون ونحوهِ لكن وُجد بعد الامتحان ان ذلك لا يدوم الا وقتاً قصيراً ثم لا يلبث العطش ان يعود . وقد عمد كلود برنار الى تحقيق هذه المسئلة فقطع مريء حصانٍ من وسط العنق وادخل هناك انبوباً من الزجاج جعل طرفهُ الى الاعلى بحيث اذا شرب الحصان يمرّ المآء في داخل الحنجرة ويخرج من الانبوب ثم امتحن سقيهُ فكان يشرب الى عشرين دلواً ولا يروى .